العدد (1893) السنة الثامنة - الأحد (29) آب 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

يـومـيـات المـــدى في بـاريـس

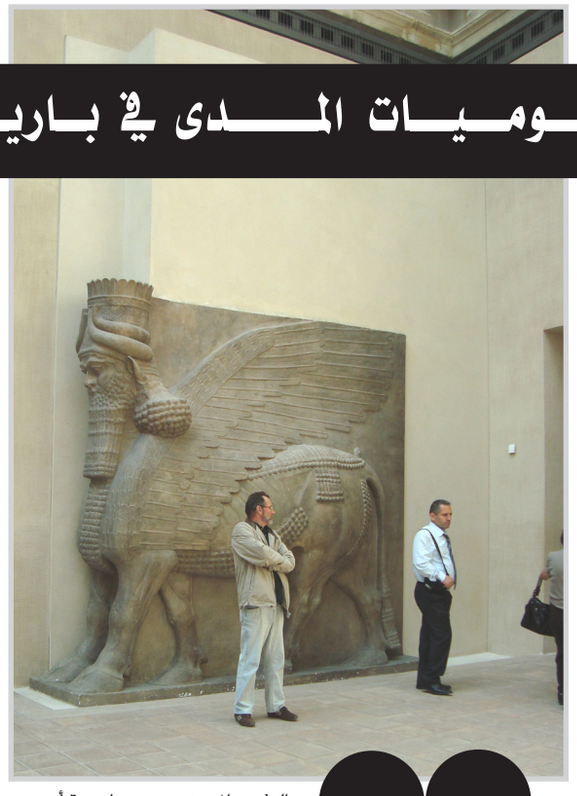

الثور المجنح من زاويـة أخـرى

المدى مع ثيران سرجون الثاني

لوحة السحر وسر الابتسامة

ودعنا المعلومات التي رفدنا بها الشاعر العراقي عدنان محسن المقيم في باريس منذ عقود ليقلنا مركب معلومات دليلتنا ويماثيل ماهو وهي تقول:

- بعد الانهيار الأول لمدينة بابل أتى الملوك الآشوريون وبلغ حكمهم ذروته بين ٩٠٠ و٦٠٠ عام قبل الميلاد، وشيدوا لهم قصوراً توزعت في مدن بلاد ما بين النهرين، وتميز ملوك آشور بنقل عاصمة مملكتهم، فتراها أحياناً نينوى أو النمرود أو خسرو باد.

غير آبهين بـ(٨) ملايين زائر سنوياً

سرجون الثاني يغـري الموناليزا بقصره في اللوفر

باريس/ يوسف المحمداوي

غياب التقنية العلمية

وتضيف ويماثيل وهي تشير الى قصر لأحد الملوك أن فريقا فرنسياً قام بعملية التنقيب فيه ووجد العديد من الرسوم الجدارية التي كانت بحالة غير جيدة، وعندما أخرجوها من الأرض تعرض بعضها للتلف، لأن في تلك الفترة- كما تقول الدليلة- لم تكن لدى فريق العمل الفرنسي المعرفة الكيمياوية والتقنية العلمية التي تؤهلهم وتمكنهم من المحافظة على ألوان تلك الرسومات، لذا ترونها الآن وهي ليست بألوانها الأصلية، لكن لحسن الحظ كان ضمن الفريق المنقب رسام، حيث قام برسم وتلوين ما رآه في الموقع لحظة استخراجها من القصر، فقام برسمها على هيئتها الأصلية.

وتقول ويماثيل: ان أغلب تلك الرسومات الصغيرة محفوظة الآن في مخازن المتحف وما ترونه الآن هو نماذج لصور تمثل تلك الرسومات.

تنتقل بنا نحو أحد الملوك الذي امر بتزيين قبره بالرسوم، وبعضهم يفضل النحت في الحجر لإضفاء الجمالية على القبر من الخارج، وتلك الرسومات والنحوتات معظمها أما تمثل الملك وهو في حالة حرب أو رحلة صيد وهي المظاهر السائدة في أغلب تلك العصور السالفة.

شفاه ورد تقبل شفاه مسك

أثناء انتقالنا الى قاعة آثار النمرود انتبهت الى مشهد لم آلفه هناك.. هناك حيث جمرة القلب تستعر.. حيث الجلادون كثر والمجلودون أكثر.. حيث الشمس.. الجو، كل شيء يحاربني هناك.. لنعود الى المشهد.. شقراء يحتضنها أسود.. سوداء يطوقها ذراع أشقر.. شفاه ورد تقبل شفاه مسك، لا فرقة للألوان هنا.

واعتقد جازماً ان تلك الثقافة هي من جاءت بأوباما ليتسيد البيت الأبيض، ومن غير شعور قلت مع نفسي، لماذا لم أجد تحت قبة مجلسنا النيابي برلمانياً أسود، لا في مجلس الحكم ولا في الجمعية الوطنية ولا في البرلمانين السابق واللاحق نائباً أسود أو نائبة سوداء.. نعم هناك عمائم سود، عباءات سود، نيات سود، وقائع سود، على الرغم من ان الدستور العراقي الجديد لم يحدد لون بشرة المرشح للبرلمان او في بقية (الزلطات) - عفواً زلة لسان - السلطات، لكن قد يكون إخوتي في الوطن من أصحاب البشرة السوداء تلقوا رسالة سرية من الرئيس أوباما تنذرهم بولوج عالم السياسة في المرحلة الحالية لسوداوية الواقع العراقي بكل شيء، ويجنبهم الدخول في صومعة الجزء من المشكلة.. لا أعلم.

ما ورثناه من حضارتنا ثقب أذن

لكن ما اعلمه أن ويماثيل كانت تتوسط قاعة آثار النمرود مشيرة الى نحت يمثل الملك آشور بانيبال وهي تقول: أول ملك مهم في الحقبة الآشورية، وفي قاعة عرشه رسومات لمشاهد فيضانات وحروب، وفي أصبعه خاتم، وكما يفعل ملوك آشور كان يزين وجهه بلحية مصطنعة وكأن تلك اللحى من أبجديات وطقوس الحكم، وما يذهل الفرنسيين ويثير فضولهم -كما تقول ويماثيل - وجود هذه الحلقة في أذن الملك المثقوبة، هنا لمست ثقب أذني وقلت للمترجمة باسكال: ثقب أذني يجعلني الوريث الشرعي للملك آشور بانيبال.. ضحكت باسكال ونقلت تعليقي لدليلتنا التي ضحكت أيضاً وعلقت قائلة: بالطبع.

ولا أدري ما الذي جعلني أشعر بأنها قالتها بحسرة وكأنها تقول لي: الا يخجلكم وأنتم تشاهدون الآن ألق حضارتكم ورقيها ولم ترثوا منها غير خاتم باليد وثقب بالأذن ولحى مصطنعة؟

لماذا..؟ لا أدري، تذكرت حينها حكاية لصاحب الأغاني تقول: ان رجلاً صلى خلف الإمام بمكة فقرأ الإمام (وما لي لا أعبد الذي فطرني...)، فقال الرجل: ما أدري والله!

نعم يا ويماثيل: ما أدري والله!

ذروة الفن الآشوري

تستطرد دليلتنا قائلة: هذه اللوحة المكتوبة بالمسمارية غير المحفورة جيداً تروي الانتصارات والإنجازات التي حققها ذلك الملك، مضيفة أنه بعد موت الملك سرجون خلفه ولده سنحاريب الذي قام بنقل العاصمة الى نينوى عام ٧٠٠ قبل الميلاد اعتقاداً منه بأن موت والده في ساحة المعركة هو نذير شؤوم على المملكة، لذا غير العاصمة وبنى فيها قصراً جديداً، وتلك النقوشات التي نراها هي لأقواس القتال التي استخدمت في حروب تلك الفترة وبعد - والكلام للدليلة- كل ما منحوت على قصور نينوى يمثل ذروة الفن الآشوري، وهذا القسم الذي ترونه في المتحف هو لحفظ الآثار الشرقية، وهي تشير بأصبعها الى جدارية محفوظة داخل صندوق زجاجي قالت: ما مكتوب هنا هو طريقة لفهرست تلك القطع وتاريخها لأن الفن الآشوري وثق جميع تواريخ أحداثه بصورة دائمية، ولاحظوا في هذه القطعة الأثرية حركة الجنود ووضع حركتهم الذي ليس فيه تباين، أما تلك المربعات التي ترونها فهي تشير الى الحجارة الموجودة في الجبال، وأثناء انتقالنا الى قصر آخر من قصور اللوفر - عفواً - من قصور أجدادنا، ظلت عالقة في ذهني صورة الجنود وحركتهم غير المتباينة.

يا علتي من كبر بغداد

أحالتني تلك الحركة الى تصريحات ومواقف ساستنا التي تتباين ما بين لحظة ولحظة والمصيبة أن أغلبها يأتي من ساسة ينتمون للقائمة نفسها، ومثال ذلك أن رئيساً لإحدى القوائم انتقد تصريحات أحد السفراء واعتبرها تدخلاً بالشأن العراقي، وفي الوقت نفسه تجد الشخصية السياسية الثانية في قائمته يزور ذلك السفير ويثني على مواقف دولته، والمواطن أشعر به وكأنه يردد ترنيمة المرحومة والدتي حين كانت تتذمر من شيء:

يا علتي من كبر بغداد.. الحجيتها طشت بالبلاد.. والخليتها حرمتني الزاد

تقول دليلتنا: هذه القاعة تخص العاصمة خارسباد، حيث ان الملك سرجون الثامن اتخذها عاصمة لحكمه وبدأ ببناء قصره فيها عام ٧١٥ قبل الميلاد، لكن عملية البناء في القصر توقفت بعد أن لقي مصرعه في ساحة المعركة، وبلغت المساحة التي بني عليها القصر عشرة هكتارات، مضيفة: أن الفرنسيين مع فريق عمل العالم الأثري فونكا هم الذين نقبوا عن ذلك القصر في عام ١٨٤٠ واستخدموا تلك القطع الأثرية النفيسة منه.

الآثار التي ابتلعها البحر

ثم قاموا بنقلها على متن سفن أعدت لهذا الغرض، وكان من المفترض أن تنتج تلك المقتنيات صوب فرنسا، لكن وللأسف - والحديث لدليلتنا- أن بعض السفن التي تحمل تلك النفائس غرقت وغاصت في عمق البحر ليفقد التاريخ الإنساني آثار ذلك القصر المهم بتاريخه والطريقة العمرانية التي ينفرد بها الآشوريون في عملية العمران.. تصوروا - والكلام لي- فرنسية تتأسف على غرق قطع من قصر سرجون، ونحن ما الذي يجدر بنا أن نقول؟.. تمنيت لحظتها ان أدخن علبة سكائر كاملة بنفس واحد عسى إن يكون دخانها سحاباً يزخ مطراً ليطفئ جمري على بلد يغرق كل يوم.. كل ساعة ببجر الأزمات، ولكن التدخين في فرنسا ممنوع باستثناء الشارع العام وأكتفيت بـ(آخ يا وطن.. وين آخذك وين انهزم بيك.. من الدمرك وادعى يبنيك.. يابو المناير حوبتك وين.. ساكت عليهم وين تاليك)..

حراس أسلحتهم الضوء والماء

في هذه الباحة من القصر تبين لدليلتنا أن القائمين على المتحف أرادوا ان ينقلوا حتى الأجواء التي كانت سائدة في القصر، فما نراه الآن هو من مجسم لقصر ماري وممراته وغرفه المختلفة، لكننا سنذهب الى الباحة الرئيسية ولكن أنتم تشاهدونها عند الظهيرة، وإذا ما وقفتم فيها عند المساء وحين تصبح خالية من الزائرين تشعر وأنت في وسطها بنشوة غريبة وشعور بالارتياح يرفدك ببهجة لم تألفها من قبل، هذا هو باب القصر، وهناك حراس على كل باب يحملون غصن صنوبر في يد وبالأخرى سطلاً من الماء يطهرون به الزائرين من خلال رشهم بالماء الموجود داخل السطل، ووجدت لحماية القصر الثيران المجنحة، لاحظوا تصميمها الرائع وهي تتربص بالأعداء، عدد أرجل الثور خمس اثنان منها في الأمام وثلاث في الخلف، لكن عندما تنظرون إليها من زاوية أخرى تسحبنا الى الزاوية فرأيناها أربعاً، علماً انها ثيران برأس إنسان ويرتدي حلقة بأذنه المثقوبة، وكذلك اللحية المميزة، فضلاً عن الأجنحة، وتقول دليلتنا: تخيلوها وهي ملونة، يجب أن تتخيلوها وهي ملونة يا لروعتها وهي ملونة، لاحظوا بقايا لآثار تلك الألوان الحقيقية التي تزين أجنحة الثيران.

ما الفرق..؟ كلهم ملوك

أعادني الحرس الذين يحملون الصنوبر وسط الماء الى المنطقة الخضراء، حين تود مقابلة أحد المسؤولين أو الدخول الى قبة البرلمان كم من حرس مدجج بالسلاح، وكم من سيطرة.. وكم من جهاز سونار يكشف عورتك.. وكم من جواب تحتاج لأسئلة مختلفة.. وكم من هوية يجب أن تحمل.. وكم من كلب يشم عدة عملك، وبالنتيجة لن تحظى بمقابلة سنحاريب او سرجون، ما الفرق يا يوسف كلهم ملوك.. نعم كلهم ملوك، الاختلاف قد يكون بالزمن والسلوك، ومع لهاثي خلف ويماثيل كنت أردد قصيدة حسين القاصد (قف):

قف أيها الوقت
لا تعبر على وجعي
لديّ جرحٌ لذيذٌ هل يجيء معي
لديّ من نخلتي
طفل يهز بها جوعاً
وقد طاحت الدنيا ولم يقع
قف أيها الوقت
إني صرت مقتنعاً
باني سوف أبقى غير مقتنع

هذا هو الملك سرجون الثاني، قالتها ويماثيل بصوت عال، وتلك نقوش لزهور بألوان مختلفة، ولكن وكما قلت لكم ان طريقة استخراجها أفقدتها ألوانها الحقيقية بسبب التأثيرات الجوية عليها كالمطر والشمس وحتى الهواء، وهذا ما دفع بإدارة المتحف الى أن تضع عليها ورنيشاً لغرض حمايتها.

ما بين اللوفر وسوق مريدي

وهنا فاجأني أحد الزملاء من الوفد بسؤال أثار حفيظتي: أليس من حقنا استرجاع تلك الآثار؟ فأجبته بغضب، حتى نراها في اليوم الثاني معروضة للبيع في سوق مريدي، فلتترك العالم يعرفنا من خلالها لا من خلال ما يحدث الآن في البلد، أنظر الى إيطاليا تفتخر بوجود الموناليزا في اللوفر.. صمت وقال: والله كلامك صحيح.

تقول دليلتنا: ان منطقة خرساباد تتواجد فيها غابات، ولكن جذوع أشجارها لم تكن بالحجم الكبير الذي يفي بالغرض لبناء تلك القصور الكبيرة، لذا قرروا السفر الى أرض لبنان التي تتواجد فيها الأشجار الضخمة وقاموا بقطع جذوعها وسحبها وعبروا بها جبال لبنان متوجهين صوب البحر، انظروا - والكلام للدليلة- هذا البحر ترونه وهناك حورية فيه ليست كالحورية التي في ذهن الفرنسيين الذين يتصورونها امرأة جميلة، لكن الحورية هنا برأس رجل ملتح مع قبعة كبيرة، وهذا ما يذكرنا برؤوس الثيران المجنحة في خرساباد.. وهنا نشاهد القوارب وهي تسحب جذوع بخط رفيع جداً من أجل إبراز شكل الأسد بوضوح وجلاء وكأنهم وفي ذلك الوقت يمارسون النحت على شكل الكرافيك المستخدم برسم اللوحات في عصرنا هذا.

كم من سرجون نحتاج لإعادة الإعمار

تصوروا - والكلام لدليلتنا- أن البحر بعيد جداً عن سكان خرساباد، فضلاً عن وجود أساطير بشأن مخلوقات غريبة ومتوحشة تعيش في مياه ذلك البحر، ومع ذلك تحدوا كل شيء وجاءوا بالخشب، ثم يتعين عليهم حمله عبر الجبال للوصول به الى مدينتهم وما يلفت انتباه الجميع سعي الملك سرجون الثاني وإصراره العجيب على العمران والبناء وتضحيته بالأموال من أجل شراء ذلك الخشب وبناء مدينته.. كم من سرجون نحتاج لإعادة إعمار البلد.

آه.. يا ويماثيل كم من سرجون! الآن فينا يسافر الى لبنان لاستثمار الأموال التي كسبها من عرق جبينه هناك.. ونتمنى منه أن لا يجلب الخشب وكذلك التعب فما بين ضلوعنا منه ما يكفي.

الجمال البيك دايخ هوه بيك

الآن تقول دليلتنا: ننتقل الى مدينة بابل ونحن في الطريق إليها بين ممرات قاعة بلاد ما بين النهرين.. أي قلب لا يلتفت لوخزة حسن.. أي عين لا تخدر بنظرة اشتهاء.. أي أنف مثل أنفي الطويل لا ينحني لقداسة الجمال.. لوحات من السحر معلقة على جدران وسقوف المتحف وأخرى تمشي على الأرض وعلى الضلوع المستحقات التقاعد، وجدتني ومن غير شعور أردد أبيات شعر شعبية لعبد الحسين الحلفي:

الجمال البيك دايخ هوه بيك
وتخدر أيدك يمكن بلمسة أديك
انته من سواك ربك شكل خاص
يمكن امسويك إله يباوع عليك

في عام ٦٢٧ قبل الميلاد صد أهالي بابل هجوماً آشورياً عليهم، ومن ذلك الزمن بدأت حقبة جديدة من الحكم في تلك المدينة تسيدها الملك نبوخذ نصر الذي أعاد بناء المدينة، حيث قام ببناء السور المحيط بها، وسبيته أو زوجته سميرا ميس هي التي كانت السبب ببناء الجنائن المعلقة، وقام نبوخذ ببناء أكبر باب للمدينة وهو باب عشتار وما بين باب عشتار والمعبد كان هناك طريق يسمى شارع الموكب الذي قام بتزيينه بتلك الحجارة الملونة، أما باب عشتار فقد كان يتكون من هذا السيراميك الملون، وعلى جانبي شارع الموكب قام بنحت نصب للأسود، وما يذهل حقاً - والكلام للدليلة- أن أهل بابل في طريقة نحتهم لتلك الأسود كانوا يفصلون بين كل حجارة وحجارة وجدوا بعض الأسود، وقد فقد منها بعض الحجر، لذا قاموا بنحت عدة أسود من الحجارة نفسها وكان لديهم منها الكثير في متحف برلين وقد تمت مبادلتها مع الفرنسيين ليحصل المتحفان على تلك القطع، موضحة: بأنه يجب الإقرار بأن تلك القطعة قد لا تكون هي الحجر الأصلي لقدم هذا الأسد، لكن علماء الآثار كانوا محظوظين جداً لأن البابليين كانوا يرقمون تلك الحجارة مما سهل على علماء الآثار إعادة عملية تركيبها وفق الترقيم البابلي، وفي عام ٥٣٩ قبل الميلاد قام الملك الفارسي شورش بالاستيلاء على بابل (الله لا يوفقه). وهنا بدأ أفول مملكة بابل العظيمة وذهبت سطوة أسدها وهو يفترس أعداءه.

الفرس استباحوها والألمان نقبوا فيها والأمريكان اتخذوها قاعدة عسكرية لقواتهم بعد التغيير ولا أدري هل بقيت فيها نسمة عطر لسميراميس.. بقايا من جلابيب نبوخذ نصر أو أسد غير مغتصب، ولا أدري وأنا أتذكر بابل لماذا خطرت ببالي تلك الحكاية القديمة التي تقول: ان نحوياً ركب سفينة فقال للملاح: هل تعرف شيئاً من النحو، فقال له: كلا.. فرد عليه النحوي: لقد ذهب نصف عمرك، بعدها اضطربت السفينة واشتدت الرياح وكادت السفينة تغرق، فقال الملاح للنحوي: هل تعرف السباحة.. فرد عليه: كلا، فقال له الملاح: ذهب جميع عمرك.

ماض من الذهب وحاضر من التعب

غادرنا آثارنا بقلوب متلفتة الى ماضٍ من الذهب متجهين صوب حاضرٍ من التعب، قالت ويماثيل: تحتاجون الى أسابيع لتشاهدوا جميع تقنيات المتحف، لكن الذي لم يشاهد لوحة الموناليزا كأنه لم يزر اللوفر، لذا لن أفوت الفرصة عليكم، هذه لوحة الموناليزا التي رسمها ليوناردوا دافنشي في فلورنسا عام ١٥٠٣، واصطحب اللوحة معه بعد أن قرر أن يقضي حياته في فرنسا.. استغرق دافنشي في رسمها فترة امتدت لأكثر من أربع سنوات، أحد المؤرخين يقول ان دافنشي رسم وجه دونا أي سيدة تسمى ليزا، وهي زوجة لرجل معروف ومصطلح المعروف أو المشهور باللغة الفرنسية القديمة هو (الجوكو) وبهذا سميت بـ(الجوكاندا).

رسمت اللوحة بطريقة تذهل الجمهور لأن البعض كان يعتقد أنها تلتفت أو تتحرك، ويكمن السر هنا ان دافنشي لم يضع نقطة بيضاء وسط العين لتحديد وجهة نظر عين الموناليزا، فمن أية زاوية تنظر إليها يتولد لديك انطباع بأنها تنظر إليك، وابتكر دافنشي - والكلام لدليلتنا- طريقة جديدة في رسمها من خلال تقنية أسمها (كوماتو) وهذا المصطلح من الدخان، وحين تنظر إليها الآن تلاحظ أن هناك دخاناً او ضباباً أو غشاء خفيفاً يغطي اللوحة، وعندما تصل الى صدر اللوحة يتولد لديك انطباع بأنها تتنفل، ولكن المحير الأكبر فيها ابتسامتها، أطباء قاموا بدراسة تلك الابتسامة وتوصلوا الى نتيجة بأنها ابتسامة امرأة حامل، وفريق طبي آخر يقول انها ابتسامة ام أنجبت للتو.

ثمانية ملايين زائر سنوياً

وانا أقول - والكلام للدليلة- انها تبتسم لأنها فرحة جداً بثمانية ملايين زائر لها يتهافتون سنوياً لرؤيتها، والأطرف من ذلك أنهم يصابون بخيبة الأمل ويتفاجأون بصغر حجم اللوحة، وربما هذا ما يضحكها، ويبلغ طول اللوحة (٧٧) سم وعرضها (٥٧) سم وهي مرسومة بالزيت على الخشب، مضيفة: أن العالم السايكولوجي فرويد يقول: أن دافنشي احتفظ باللوحة ولم يهبها لحبيبته، لأن ابتسامتها تشبه ابتسامة والدته.

هنا انتهى حديث دليلتنا، لنستسقي معلومات أخرى من الموناليزا، حيث ذكرت صحيفة الديلي تلغراف البريطانية أن جيسيب بالانتي وهو مدرس إيطالي أمضى ٢٥ عاماً وهو يجري أبحاثاً بشأن هوية الموناليزا واكتشف دليلاً واضحاً أن دافنشي على علاقة بتاجر حرير يدعى فرانشسكو ويل جيوكوندو، وتزوج هذا التاجر من ليزا جيرا ديني عام ١٤٩٥، وقال بالانتي أن مؤرخ السير الذاتية الإيطالي جورجيو فاساري الذي ينتمي الى عصر النهضة ذكر اسم تاجر الحرير وعلاقته بدافنشي عام ١٥٥٠ وكان محقاً لأنه يعرف عائلة جيوكوندو شخصياً.

والجدير بالذكر أن لوحة الموناليزا أدخلت الى الكمبيوتر وأدخلت معها أيضاً صورة دافنشي، فكانت النتيجة وجود العديد من نقاط التشابه المذهلة بين الصورتين، ولشدة ذلك التشابه قالوا ان الموناليزا هي وجه دافنشي.

(أنحلّف دافنشي بالعباس)

ملاحظة: الأطباء يقولون أنها لامرأة حامل وفريق آخر يقول أنها لامرأة ولدت للتو وفرويد يقول أنها تشبه أم دافنشي والكومبيوتر يقول أنها دافنشي وانا أقول نخرج دافنشي من قبره (ونحلفه بالعباس حتى نعرف الصدق).

المهم ودعنا دليلتنا الرائعة ويماثيل ماهو لتقودنا ممثلة وزارة الخارجية السيدة الرائعة بند يكت التي لم يمنعها تقدم العمر من أن ترافقنا بجميع جولاتنا المقررة من قبل الوزارة وبكل نشاط وحرص، وكذلك ينطبق الأمر على الرائعين المترجمين نبيل العزاوي وباسكال عبد الله.. التفت الى اللوفر للمرة الأخيرة مستذكراً يوم عودتي القريب الى بغداد ولا أدري لماذا تذكرت حينها حكاية تقول: ان أحدهم مرت به جنازة وكان معه ابنه، وفي الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك الى بيت لا فراش فيه ولا غطاء ولا خبز ولا ماء ولا كهرباء- هذه مني-.. فقال له ابنه: يا أبت أنهم يذهبون به والله الى بيتنا.. التفت فلم أجد ابني..

الى يوميات أخرى

دليلتنا أمام أحد اسود بابل